

رفاعة

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا فما اعتذارك من قَوْلٍ إِذَا قِيلَ

أبرز الرموز الواردة فى فصل رفاعة ومعانيها :

م	الرمز	الرمز
١	رفاعة	عيسى عليه السلام
٢	عَبْدَة	مريم رضى الله عنها
٣	شافعى	يوسف النجار
٤	صخرة هند	مكان التتويج بالرسالات عند المؤلف ؟
٥	زكى - حسين - على - كريم	رمز لجماعة الحواريين
٦	العفاريت	الكفر والمعاصى والشرور
٧	الدواء	المواعظ والهداية
٨	المرضى	العصاة والكفرة

رفاعة توطئة

نهج مؤلف رواية « أولاد حارتنا » فى الحديث عن رفاعة - عيسى عليه السلام - نهجه فى الحديث عن أدهم - آدم - وجبل - موسى عليهما السلام - فالرمز هو وسيلته المفضلة فى التعبير ، ثم تدخل الخيال فى تصوير الوقائع التى لها أصل فى التاريخ الدينى النبوى ، مضافاً إلى هاتين الوسيلتين وسيلتان آخريان شاع ورودهما فى بناء الرواية كلها ، وهما : الحذف ، والإضافة : مرة يحذف من الواقعة ما هو منها ، ومحفوظ عند الناس ، ومرة يضيف إلى الواقعة ما ليس منها ، وما لذلك من باعث عند المؤلف الأستاذ نجيب محفوظ إلا التمويه والتشويش على القراء ، حتى لا يفتنوا إلى « خباياه » التى كانت تسيطر عليه وهو يخط روايته « أولاد حارتنا » السيئة السمعة لدى السواد الأعظم من أهل العلم والمثقفين ، ومن خلال هذه الوسائل التموهية استطاع أن يقوم بطرح « إسقاطات » تعبر عن رأيه فى « قيمة التاريخ الدينى النبوى » أو فى بعض مواقفه ، ولو كان قد كتب الرواية بلغة واضحة وصريحة لما تسنى له أن يبوح بكلمة واحدة فيها إساءة إلى كبار أولاد الحارة الذين « سجّاهم » برموزه وحيله التعبيرية الماكرة .

وها نحن أولاً نكشف القناع عن « رفاعة » لنرى عيسى ابن مريم رسول الله ، ولسان حاله يقول : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿ .

● الأدلة :

الدليل الأول - التناسق الوجودى :

رتب مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الحديث عن التاريخ الدينى النبوى على أساس الترتيب الوجودى الزمنى للرُّسل الكبار الذين تحدث عنهم .
فبدأ بأدهم ، وهو فى الرواية آدم أبو البشرية عليه السلام .
ثم بجبل ، وهو فى الرواية موسى أكبر رُسل بنى إسرائيل عليه السلام .
وفى هذا الفصل يتحدث عن « رفاعه » ، وهذا التناسق دليل أول على أن « رفاعه » هو عيسى ابن مريم عليه السلام .

الدليل الثانى - اعتزال مريم وعودتها بعد الإنجاب :

فى القرآن الأمين وردت لمحة عن اعتزال مريم أم عيسى ، عن أهلها ، حيث أقامت بعيداً عنهم للتأمل والعبادة ، فأرسل الله إليها رسولا نفخ فى « جيبها » أى فتحة ثوبها من أعلى مما يلى الصدر ، فحملت بعيسى عليه السلام ، ثم لما وضعت عادت إلى أهلها ، فكان ما كان من استنكارهم لحملها وولادتها . وفى ذلك يقول الحق جل فى علاه :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (١)

ثم قال فى مرحلة ما بعد الوضع :

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ

(١) مريم : ١٦ - ١٩

هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا
كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١﴾ .



● الواقعة فى الرواية :

بدأ مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن « رفاعه »
أو عيسى عليه السلام بواقعة الاعتزال التى ذكرها القرآن الأمين ، ثم العودة
إلى أهلها .

ولكنه - أى المؤلف - مع حرصه على الاستفادة من هذه الواقعة ، كان
أشد حرصاً على عرضها فى نسق مختلف عن النسق القرآنى الحكيم المطابق
للواقع .

فجعل الاعتزال هجرة من الحارة إلى موضع صخرة هند ؟!

وجعل المعتزل أو المهاجر اثنين لا واحداً : عبدة التى رمز بها إلى مريم
البتول أم عيسى عليه السلام ؟

وشافعى الذى رمز به إلى يوسف النجار كفيل مريم .

وجعل الحمل برفاعة أو عيسى ، وهو المقصود ، تم فى الحارة قبل
الاعتزال أو الهجرة ؟

وجعل العودة من المعتزل أو المهجر بعد أن صار رفاعه صبياً مميزاً لا طفلاً
فى المهد ؟

(١) مريم : ٢٧ - ٣١

وأهمل مجئ الرسول إليها وبشراه إياها بالغلام الزكى ، وتمنيها الموت حين ولدت ، وإمدادها بالتمر وهى فى عزلتها .

وإليك نبذاً من كلامه الخيالى :

« أوشك الفجر أن يطلع ، وآوى إلى المضاجع كل حى .. واستقر الظلام .. وفى رعاية الصمت الشامل ، فتح باب ربيع النصر بحى آل جبل - قوم موسى - فى حذر شديد ، فتسلل منه شبهان ، سارا فى سكون نحو البيت الكبير ، ثم تابعا سوره العالى إلى الخلاء .. وجعلا يتلفتان وراءهما .. ليطمئنا إلى أن أحداً لا يتبعهما ... كانا : رجلاً فى أواسط العمر ، وامرأة شابة حبلى ، وعند الصخرة - أى صخرة هند - تنهدت المرأة وقالت بإعياء : عم شافعى تعبت ؟ فتوقف الرجل عند المسير وقال فى غيظ : استريحى ، ربنا يُتعبُ المتعب » (١) .

غنى عن البيان أن هذه الفقرة تشير إلى عزلة مريم عن أهلها ، ولكن بطريقة رمزية غالطة .

أما العودة إلى الأهل فيشير إليها مؤلف أولاد الحارة بقوله :

« قامت عبده - يعنى مريم - تناول كفها فى يده - أى يد شافعى - وسارا نحو الجنوب ، نحو سوق المقطم . قالت عبدة بفرح تألق فى عينيها وثغرها : « ها هى حارتنا ، وما نحن نعود إليها بعد غربه ، فالحمد لله رب العالمين » (٢) .

هذه الطريقة التى صورت فيها رواية « أولاد حارتنا » عزلة مريم عن أهلها ثم عودتها إليهم ، فيها - كما ترى - تزوير وتمويه . وحسبنا - نحن - ورودهما - العزلة والعود - فى الرواية على أى نحو كانا ، فإن دلالتهما على أن رفاعة فى الرواية هو عيسى ابن مريم شديدة الوضوح .

(٢) أولاد حارتنا ص ٢١٧

(١) أولاد حارتنا ص ٢١٣

● الدليل الثالث - الحب والسلام :

يصف الكاتب رفاة بأن غايته فى الحياة كانت الحب والسلام ، وقد شاع بين الناس إضافة خاصة لكل رسالة من الرسائل الثلاث :

اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، فخصوا رسالة موسى بالقوة ، وخصوا رسالة عيسى بالسلام ، وخصوا الإسلام بالعدل ، وهذا فهم مغلوط ، فالرسالات السماوية كلها رسائل قوة وسلام وعدل ، ونحن - هنا - تصيدنا هذا الدليل من الرواية على أن رفاة فى « أولاد حارتنا » هو عيسى عليه السلام ؛ لأن مؤلف الرواية إنما وصف رفاة بالحب والسلام متكتاً على ركيزتين :

إحدهما : ما أشرنا إليه من الفهم المغلوط الشائع بين الناس .

والثانية : أن الأناجيل التى بين يدى النصارى - الآن - تكثر من الأقوال والأفعال المنسوبة إلى عيسى عليه السلام ، وترشح لهذا الوصف مثل :

« من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ؟!

ومثل : « باركوا لاعنيكم » .

ولو صح هذا لكان إبطالاً لشرعية القصاص فى التوراة .

اللَّهُمَّ إلا إذا كان عيسى عليه السلام يشير إلى « العفو » وهو مباح للمعتدى عليه فى جميع الشرائع .

ومما ذكره المؤلف عن وصف عيسى أو رفاة بالحب والسلام قوله منسوباً إلى رفاة :

« فملت إلى رأى أُمى إيثارها الحب والسلام » ^(١) .

(١) أولاد حارتنا ص ٢٣٠

وقوله : « لا تفكروا فى العراق ، فإن الذى يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سَفْكُ دمائهم » (١) .

• الدليل الرابع - العزوبة :

المعروف من سيرة عيسى عليه السلام أنه لم يتزوج ، وقد سجل مؤلف الرواية « أولاد حارتنا » هذا السلوك منسوباً إلى رفاعه ، وهو عيسى فى الرواية كما تقدم .

فقد ساق المؤلف حواراً جرى بين رفاعه من جهة ، وشافعى وعبدية ، وهما والدا عيسى فى الرواية ؟

وكان موضوع الحوار رغبة « والديه » فى تزويجه وهو يُصر على عدم الزواج ، رغم أن « والديه » حدّدا له العروس ، والبيت الذى سيصاهره ، وهو من آل جبل - قوم موسى - وقالوا له :

إن مصاهرة آل جبل دعاء مستجاب بالتأكيد (٢) .

ولا يقدح فى هذا دليلاً على أن رفاعه فى الرواية هو عيسى عليه السلام أن الرواية نسبت زواجاً لرفاعة بامرأة اسمها « ياسمينه » لأن هذا الزواج كان صورياً تعطلّت فيه الواجبات الزوجية « الخاصة » من طرف واحد ، هو رفاعه (٣) .



• الدليل الخامس - الاختفاء الأول :

ومن المعروف من سيرة عيسى عليه السلام أنه اختفى مرة عن والدته فبحثت عنه فى كل مكان فلم تجده ، وقد حرص مؤلف الرواية على الاستفادة من هذه الواقعة ، فأوردها وهو يتحدث عن رفاعه (٤) .

(١) أولاد حارتنا ص ٢٨٣ (٢) أولاد الحارة ص ٢٤١
(٣) أولاد الحارة ص (٢٧٧) . (٤) أولاد الحارة ص ٢٣٨ - ٢٤١

ومما تجدر الإشارة إليه أن عيسى عليه السلام اختفى عن أمه مرتين في حياته .
هذه أولاهما ، أما الاختفاء الثانى ، فكان فى آخر حياته ، وسيأتى الحديث
عنه بإذن الله .



● الدليل السادس - التتويج بالرسالة :

وهكذا يصعد المؤلف الأستاذ نجيب محفوظ من « السفح » إلى « القمة »
فى رسم شخصية عيسى التاريخية ، فمن اعتزال أمه واتخاذها حجاباً إلى
تلقى عيسى - عليه السلام - الرسالة السماوية .

وقد عرفنا من قبل أن المؤلف اعتاد أن يرمز إلى تلقى الوحي بالرسالات
السماوية ، اعتاد أن يرمز إلى هذا المعنى الجليل بأن لقاءً تم بين « الجبلاوى »
رمز الألوهية (الله) فى الرواية ، وبين من يختاره رسولاً كما حدث فى
الفصل السابق « جبل » .

وقد سلك هذا المسلك نفسه فى تتويج عيسى بالرسالة مرموزاً إليه بـ « رفاعة » .



● الواقعة فى الرواية :

يصور المؤلف واقعة تتويج عيسى بالرسالة فى حديث جرى بين رفاعة
وأبيه ؟ (١) :

« أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى
الانطلاق ، فقصدت الخلاء ، مشيت فى الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت
مكاناً أسفل البيت الكبير المشرف على الخلاء ، فجلست مُسنداً ظهري إلى

(١) ليس لعيسى أب كما هو معلوم ، وإنما جارينا المؤلف فيما قال ، لأننا نقل
كلامه مهما كان فيه من بُعدٍ عن الواقع .

السور . . سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه فى الظلام ، فدهمنى شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوى . . فقال أبوه : صوت الجبلاوى ؟ ما الذى حملك على هذا الظن ؟

فقال رفاعه بحرارة :

ليس ظناً يا أبى ، سيجيئك الدليل ، وقد قمت حال سماعى الصوت ، فاستدردت نحو البيت ، وتراجعت إلى الورا لأتمكن من رؤيته ، ولكنى لم أر إلا ظلاماً ، فقال أبوه : الحمد لله .

فقال رفاعه : « صبراً يا أبى : سمعت الصوت وهو يقول :

« أما جبل ، فقد قام بمهمته ، وكان عند حسن الظن به ، ولكنَّ الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه ، فقال أبوه : ما أكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً ؟

فقال رفاعه : « ولكنى أنا سمعت يا أبى » فقال أبوه : لعله أحد كان راقداً فى الظلام ؟

قال رفاعه : « بل جاء الصوت من البيت » قال أبوه : كيف عرفت هذا ؟ فقال رفاعه :

« هتفت قائلاً : يا جدى ، جبل مات ، وخلفه آخرون ^(١) ، فمد إلينا يدك » قال شافعى :

الله أسأل ألا يكون أحد سمعك ، فقال رفاعه :

« جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلاً : ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل ؟ والابن الحبيب مَنْ يعمل ؟ فسألته : وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف ؟!

(١) لعل المؤلف يقصد من « وخلفه آخرون » الأنبياء الذين بعثوا من بنى إسرائيل بعد موسى وقبل عيسى عليهما السلام .

فأجابني : الضعيف هو الذى لا يعرف سرَّ قوته ، وأنا لا أحب
الأغبياء « (١) » .

وبهذا - فى الرواية - صار رفاعه - رجل الجبلاوى - أى صار عيسى عليه
السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل ، ومهمته - كما سيأتى - تخلص الناس من
« العفاريت » أى الشرور المغروزة فى طباع أولاد الحارة ؟

أرأيت كيف حرص المؤلف على الرمز أو الإشارة إلى رسالة عيسى
عليه السلام ، بعد أن دثره بـ « عباءة » رفاعه ، ليخفى ملامحه الحقيقية على
قراء « أولاد حارتنا » ؟!

ثم أرأيت كيف طمس المؤلف ملامح الواقعة نفسها وجعل « الجبلاوى » رمز
الألوهية (الله) فى الرواية هو بنفسه يكلم عيسى عليه السلام ؟ والله لم يكلم
عيسى ، وإنما أنزل عليه الإنجيل بواسطة جبريل سفير السماء إلى رُسُل الله
وأنبياؤه الكرام ؟

إلى هذا الحد يُلَوِّن المؤلف وقائع التاريخ الدينى النبوى بخياله كما يحلو له
التلوين ؟!

وسائل تعبيرية مأكرة يخفى وراءها المؤلف « جوانياته » لئلا يشتم رائحتها
أحد ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ليتسنى له « إسقاط رؤاه » فى التاريخ الدينى النبوى ،
مهما كان فى تلك الرؤى من جنابة على جلال الموضوع الذى يترسم خطاه
خطوة خطوة ؟!

وما أصدق الشاعر الذى قال :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعلُ اللسان على الفؤاد دليلاً

(١) أولاد حارتنا ص ٢٤٧ - ٢٤٨

• الدليل السابع - إبراء المرضى والمعلولين :

لكل رسول معجزات خارقة لقوانين العقل والعلم يجريها الله جلّت قدرته على يد من يبعثه رسولاً إلى عباده ؛ لأنّ دعوى الرسالة أمر ذو خطر ، فهي أمر غيبي لا يطلع عليه الناس ، ولا يلزمهم تصديق من يدعى النبوة إلا إذا أجرى الله على يديه واقعة أو وقائع لا تدخل في مقدرة أحد من خلق الله ، فإذا أجرى الله على يد مدعى النبوة أمراً خارقاً للمعقول والمعلوم ، كان ذلك دليلاً على صدق دعواه ؛ لأنه بشر ، والبشر جميعاً عاجزون عن الإتيان بمثل ما أجزاه الله على يديه ، فلو لم يكن رسولاً حقاً لما امتاز عنهم بما أجرى على يديه .

وشاء الله أن تكون معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام أنواعاً :

- تكليم الناس في المهّد .
- إحياء الموتى بإذن الله .
- خلق الطير من الطين فيكون طيراً بإذن الله .
- شفاء الأمراض والعلل الجسمية والنفسية .
- التنبؤ بشيء من الغيوب المكانية النسبية .

أى التى تكون في مكان غير المكان الذى هو فيه ، وإنما أطلقنا عليه « غيب مكانى نسبى » للفرق بينه وبين الغيب الزمانى الذى يحدث في المستقبل كالإخبار بما سيكون غداً ، و« نسبى » لأنه غيب بالنسبة لمن هو بعيد عن المكان الذى يوجد فيه الشيء ، وشهادة بالنسبة لمن هو في المكان الذى به الشيء المخبر عنه .

وقد جاءت هذه الأنواع في قوله تعالى :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

وكل ذلك جرى بقدرة الله وعلمه على يد عيسى عليه السلام ، ليؤمن به من يؤمن على هدى وبصيرة ، ومن لم يؤمن فقد لزمته الحجة ، وهلك عن بيته .



● المعجزات فى الرواية :

اختصرت الرواية هذه المعجزات كلها فى أمر واحد ، هو علاج المرضى من العفاريث ، وقد فهمنا أن المؤلف يرمز بالعفاريث إلى الكفر والمعاصى والشُرور ، ولكن عرضه لم يتجاوز العمل العادى ، الذى يمكن أن يقوم به من يتقنه من الناس ، أما أن تفهم أن هذا العمل الذى كان يقوم به رفاة يدل على شىء من المعجزات فلا ، فقد حرص المؤلف على الاكتفاء بعلاج الناس من العفاريث ، ولم يتطرق لأى نوع من المعجزات التى وردت فى القرآن مجرأة على يد عيسى بإذن الله ، وهذا الحرص له باعث قد أشرنا إليه من قبل وهو « إخفاء » معانى الرموز بقدر المستطاع ؟

فإن كان الأستاذ نجيب محفوظ يقدّر فى نفسه - حين وضع هذه الرواية - أنه فعلاً سد طرق الفهم أمام القراء فقد وهّم .

ومن أقواله فى هذه الوقائع :

« والحق ، أن رفاة لم يلق فى عمره أسعد من هذه الأيام ، كان يُدعى فى الحى الجديد بالمعلم رفاة ، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة ، وعُرف بأنه يخلص من العفاريث ، ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده ،

(١) آل عمران : ٤٩

وهذا سلوك نقي لم يعرف عن أحد قبله ، فلذلك أحبه الفقراء كما لم يحبوا أحداً قط » (١) .

ولا غل القول : أن رواية « أولاد حارتنا » لم تتحدث هنا عن رفاة ، إلا وهى ترمز به لعيسى عليه السلام ، ولن يدفع هذا الفهم تلك الترميمات والرموز التى تترس أو تدرع بها المؤلف ، وما أشبه حال المؤلف فى الرواية كلها بالخال التى خاطب صاحبها الشاعر الحكيم بقوله :

بادِ هواك صبرت أم لم تصبرا وبُكاك ، إن لم يجر دمك أو جرى

* *

الدليل الثامن - رفض بنى إسرائيل دعوة عيسى عليه السلام :

كان عيسى - عليه السلام - آخر رُسُل بنى إسرائيل ، وقد جاءهم بالبينات من ربهم ، ولكنهم أعرضوا عنه ، وضاقوا به ، دبروا المؤامرات لقتله والقضاء عليه .

تُرى هل أهملت رواية « أولاد حارتنا » هذه الواقعة ؟ كلا ، ولكنها عرضتها - كعادتها - من وراء « جذر » لحاجة فى نفس يعقوب ؟

* *

● الواقعة فى الرواية :

حسبنا - توخياً للإيجاز - أن نثبت الفقرة القصيرة الآتية ؛ لأن فيها دليلاً ناصعاً على أن رفاة فى الرواية هو عيسى ابن مريم عليه السلام .

فى حديث اختلقته الرواية جرى بين رفاة وياسمينه التى ملّت عمل رفاة ، قال لها :

« إنك من آل جبل ، وكلهم أبى أن يُسَلِّم لدوائى ، حتى أبى نفسه » (٢) .

(١) أولاد حارتنا ص ٢٦٧ .

(٢) أولاد حارتنا ص ٢٦٧ ، ودواء عيسى - هنا - المواعظ والهداية إلى الله .

الدليل التاسع - الحواريون :

حواريُّ الإنسان هم الأوفياء المخلصون له ، وخاصته من الناس ، واشتهر هذا « المصطلح » مضافاً إلى عيسى عليه السلام ، لأن الذين آمنوا بدعوته وصفوا له ولازموه حال حياته بين الناس كانوا قلة لا يزيدون على اثني عشر من الشباب ، وقد خلد ذكرهم القرآن في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .



• الحواريون فى الرواية :

لم يفت مؤلف « أولاد حارتنا » أن يورد مسألة الحواريين فى الفصل الذى عقده لرفاعة ؛ لأن رفاعة فى « جوانيات » المؤلف هو عيسى ابن مريم رسول الله إلى بنى إسرائيل ، لكنه جعلهم أربعة فقط اصطفاهم من جملة المرضى الذين عاجلهم وطهرهم من « العفاريت » ، وفى ذلك يقول :

« واصطفى رفاعة من مرضاه أربعة وهم : زكى وحسين وعلى وكريم ، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة . . كان على برمجياً ، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق ، وعلى يتدرب على الفتونة وكريم قواداً ، فانقلبوا رجالاً ذوى قلوب كبيرة ، وكانوا يجتمعون عند صخرة هند (٢) ، حيث الخلاء والهواء النقى ، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء . . . » (٣) .

إن حرص المؤلف على الإشارة إلى جماعة الحواريين ، لدليل من أقوى الأدلة على أن :

(١) المائة : ١١١

(٢) مرة أخرى ليحتفظ القارئ باسم « صخرة هند » ، وسنعود إليها فى الفصل القادم .

(٣) أولاد حارتنا ص ٢٦٨

● رفاة فى الرواية هو عيسى عليه السلام ، كما كان أدهم آدم وجبل موسى . هذا من جهة .

● ومن جهة أخرى فإنه لا يتكلم عن « حارة » ، ولكن عن الدنيا ولا يتكلم عن أحداث حارة ، ولكن عن التاريخ الدينى النبوى منذ بدأ ، وحتى انتهى بخاتم المرسلين .

وهذا هو المطلوب لنا من هذه الدراسة السريعة لأولاد الحارة .



الدليل العاشر - الاختفاء الأخير :

لما ضاق الخناق على عيسى عليه السلام ، وتكالب على الكيد له أشقياء بنى إسرائيل ، وأوغروا عليه صدور الرومان أصحاب السلطان السياسى ، وذوى النفوذ والغلبة ، ونما إلى سمعه ما دبروه من مؤامرات ضده وضد حواريه ، قرر عليه السلام أن يأخذ بأسباب الحيلة ، والله يفعل ما يريد ، فاخفى للمرة الثانية ، لكن لا عن أمه فى هذه المرة ، بل عن الناس جميعاً إلا خاصته الأوفياء ، ولأن الله أراد أمراً كان مفعولاً ، فإن واحداً من حواريه دلَّ أعداءه على المكان الذى هو فيه ، ثم عاد إلى صحبته لعيسى وحواريه العشر الآخرين .

ولما داهم الأعداء المكان حجباً الله إلى « الخائن » أن يفتح لهم الباب ، فألقى الله شبهه - أى شبه عيسى - عليه فقتلوه ثم صلبوه ظانين أو معتقدين أنهم قتلوا عيسى وصلبوه ، ونجى الله عيسى من كيدهم ، والله غالب على أمره :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ، وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ

لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾ .



● الواقعة فى الرواية :

عودتنا رواية : « أولاد حارتنا » تشويه سيرة الرُّسل الذين ورد ذكرهم فيها . وفى هذه الواقعة كان نصيب الخيال جامعاً .

فالحواريون أربعة لا اثنا عشر ، والذي دلَّ على المكان الذى اختفى فيه عيسى وحواريوه امرأة لعوب « يasmine » التى زوجها الرواية لعيسى من قبل ، وأن هذه المرأة كانت « جاسوس » للأعداء ترصد تحركات عيسى ، وتنقلها سرّاً لخصومه ، وأن الأعداء تمكنوا فعلاً من قتل عيسى ، أو رفاة حسب رمز الرواية (٢) .

والمؤلف مسلم مطلع على القرآن الأمين ، بدليل أن الوقائع التى ذكرها مستوحاة من القرآن الكريم ، اللَّهُمَّ إلا ما كان مصدره خيال المؤلف .

لذلك فإننا نعجب - وخالق السموات والأرض - من صنْع المؤلف الأستاذ نجيب محفوظ ، لأنه جزم بأن عيسى قُتل فعلاً ، مع أن فى هذا الجزم تكذيباً لما ورد من خبر الله الصادق ، وإنها - وربى - لكبيرة من أشنع الكبائر أن يخبر الله فى كتابه المصون بخبر ، ثم يعتقد « مسلم » خلافه مع علمه بأن الله أخبر به ؟!

فالمؤلف - المسلم - يضرب بكلام الله عُرْضَ الحائط ، ويدير ظهره لعقيدة المسلمين المجمع على صحتها وصدقها ، ويجارى أهل الكتاب - النصارى - فى عتيدتهم « قتل عيسى وصلبه » مع تكذيب القرآن الواضح لهذا الاعتقاد ؟

(١) النساء : ١٥٧ - ١٥٨ ، وعلماء المسلمين منهم من قال : رُفِعَ عيسى حياً ، ومنهم من قال : توفاه الله ثم رفعه . (٢) أولاد الحارة ص ٢٩٢ - ٣٠٠ ملخصاً .

أليس ذلك موقعاً فى الحيرة ، داعياً إلى سوء الظن بالمؤلف - المسلم -
الأستاذ نجيب محفوظ ؟!



● اعتذار مرفوض :

قد يُعْتَذَرُ عن المؤلف بأنه يكتب فناً لا سيرة ولا تاريخاً ؟

ونبادر فنقول :

إن إخضاع موضوع التاريخ الدينى النبوى للعمل الفنى مغامرة غير مأمونة
العاقبة ؛ لأن الفن يعتمد على الخيال ، ويتلون بلون عواطف كاتبه ، والأستاذ
نجيب محفوظ لما أخضع هذا الموضوع الخطير للعمل الفنى وقع فى « محاذير »
أو « محاذير » لا تكاد تُحصى ، والذى أشرنا إليه منها غيضى من فيض تعج
به روايته الأثمة حقاً ، فقد بدلَ وغيرَ فى مواقف الرُّسل متعمداً ، وأسند إليهم
تصرفات لم يفعلوها ، وأقوالاً لم يقولوها ، ووصفهم مرات بأوصاف مزرية
هم أبعدُ عنها بُعدَ السماء عن الأرض ؟! بل لم يتورع من وصف « الجبلاوى »
رمز الألوهية (الله) فى الرواية بأوصاف البشر :

فله صاحبة ، والعاىذ بالله - وله ولد ، وله خدم وهو الغنى الحميد ، كما
أطلق ألسنة « شخوصه » لستم الجبلاوى ، وهو فى الرواية (الله) وشم
أدهم ، وجبل ورفاعة وقاسم ، وهم - وفاطر السموات والأرض - : آدم
وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، فما كان أغناه وأغنى قراءه عن « الخوض فى
النار » من أخمص القدم حتى فروة الرأس ؟

ولم يكن « الفن » يوماً ، ولن يكون أبداً - مبيحاً لانتهاك الحرمات وإهانة
المقدسات ، والتطاول على القيم العليا ، وإن ادعى ذلك الجاهلون الحمقى من
دعاة الحداثة ، وأعلاج الشيوعية ، وبيغاوات العلمانية فى مصر والعالم
العربى .

فالفن - قولاً كان أو فعلاً - كسب أو اكتساب ، وكل امرئ مسئول عن كسبه واكتسابه مهما كبر أو ضؤل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) .

* *

الدليل الحادى عشر - رَفَعُ الله عيسى إليه :

لما نفى الله - وهو العليم الخبير - قَتَلَ عيسى وصلبه فقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ .. ﴾ ، قال : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ .. ﴾ ، فالرفع حقيقة قرآنية راسخة ، ولا خلاف فيها عند علماء المسلمين ، ولكن الخلاف - كما تقدم - فى صفة الرفع ، أَرَفَعَ حياً أم متوفياً ؟

* *

• الرفع فى الرواية :

قال مؤلف رواية « أولاد حارتنا » فى الرمز إلى الرفع : « وتناقلت الحارة قصة رفاة على حقيقتها التى كان يجهلها الأكثرون ، وتنوّل أيضاً أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء ، حتى حملها الجبلاوى بنفسه ، فواراها التراب فى حديثه الغناء » ؟! (٢) .

ثم عاد فقال مصرحاً بالرفع :

« .. وبخاصة رَفَعُ الجبلاوى لجثته ودفنها فى حديثه الغناء » (٣) .

الأدلة السابقة ، الأحد عشر دليلاً ، ظفرنا بها من حديث المؤلف عن رفاة أو عيسى عن حياته ، بدءاً من وهو جنين فى بطن أمه حتى آخر لحظة من حياته بين الناس .

(٢) أولاد حارتنا ص ٣٠٣

(١) المدثر : ٣٧

(٣) أولاد حارتنا ص ٣٠٤

وفى هذه الأدلة غناء ، وأى غناء ، فى معرفة من هو رفاعه فى رواية
« أولاد حارتنا » ؟

إنه ، وقيوم السموات والأرض ، عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته التى
ألقاها إلى مريم البتول رضى الله عنها .

وبقى لنا دليل آخر من حديث المؤلف عن الآثار التى ترتبت على وجود
عيسى عبداً لله ورسولاً إلى بنى إسرائيل ، رصد المؤلف فى إيجاز تلك الآثار ،
وهذا الرصد وصف مكمل لشخصية عيسى عليه السلام ، ليحل محل رفاعه
ويزول رفاعه حتى عن الأوهام ، تلك القشرة « الهشة » التى ألقاها المؤلف
على وجه عيسى عليه السلام ، وكأنه فى حفلة « تنكرية » من بدع العصر
الحديث .



الدليل الثانى عشر - الآثار التى ترتبت على رسالة عيسى :

الآثار التى ذكرها المؤلف ، الذى يهمنى منها هو الآتى :

أولاً : ظهور النصرانية جنباً إلى جنب مع اليهودية ، وقد رمز المؤلف لهذا
بظهور « حى الرفاعيين - أى النصارى - والاعتراف بهم » .

ثانياً : ذبوع ذكر عيسى عليه السلام وترديد قصته على كل لسان حتى صار
أغنية للرباب - يعنى شعراء الرباب - وهم رمز - كما تقدم - للرواة
والتقصيين الدينيين .

ثالثاً : رفع عيسى إلى الجبلأوى اشتهر بوجه خاص وأجمع عليه النصارى (١) .

(١) لست أدرى لماذا خص النصارى بهذا الإجماع مع أنه عقيدة المسلمين مع
الاختلاف فى صفة الرفع ، اللهم إلا إذا كان عذره أن المسلمين تأخر وجودهم عن
النصارى فى بداية الأمر .

رابعاً : إجماع النصارى على تأليه أم عيسى ووجوب تقديسها ، على أن المؤلف يضم إليها فى هذا التقديس « شافعى » الذى جعلته الرواية أبا لعيسى مع علمها - أى الرواية - ببطلان هذا القول . وربما جارى مؤلف الرواية بعض كُتَّاب الأناجيل الذين ينسبون - خطأً - عيسى إلى أبوة يوسف النجار المرموز إليه فى الرواية بـ « شافعى » وهى مجازاة مخطئة .

خامساً : الرهبانية التى ابتدعها بعض النصارى الأولين محاكاة لعيسى عليه السلام فى العزوبة .

سادساً : اختلاف النصارى حول :

هل تظل المسيحية اتجاهاً روحياً عازفاً عن مظاهر الحكم والسلطان : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، وهى عبارة يروونها عن عيسى عليه السلام ، ولا سند لها ، والأغلب أنها من كلام بولس الرسول ، وإليه يرجع جُلُّ الأسرار الكنسية والطقوس المعمول بها الآن ، حتى ليعتبر بولس هذا هو مؤسس المسيحية لا المسيح نفسه ، أم تنطلق المسيحية لتشمل كل مرافق الحياة من التمتع بالملذات والاهتمام بالحكم والسلطان ، وأن « قيصر » ليس له مع الله شركة فى الوقف ، أو شئون الحياة (١) .

وبهذا تتجلى صورة السيد المسيح عليه السلام بكل وضوح ، فالسيرة سيرته ، والأوصاف أوصافه ، حتى الاسم الرمزي يحمل شحنة هائلة من سماته وقسماته الوضيئة .

فرفاعة مشتق من الرفع ، والرفع ورد صريحاً فى أصدق الكلام : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۖ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ تَوَفِّكْ وَارْفَعْكَ إِلَىَّ ... ﴾ (٢) .

(١) أولاد الحارة ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ملخصاً . (٢) آل عمران : ٥٥

وكما كان أدهم آدم بزيادة « الهاء » فى الرمز ، وحذف إحدى الهمزتين فى الصدر .

وكما كان موسى « جبل » مستوحى من جبل الطور الذى كلمه عنده ربه .

وكما سيكون محمد « قاسم » لأنه « أبو القاسم » .

وخلاصة هذا البحث هنا نصوغها فى كلمة واحدة نتوجه بها إلى القارئ ،
فنقول :

« ارفع رفاة يظهر عيسى » .

